

القيم الخلقية فى الادب الجاهلى

للدكتور فيروز حريرچى

استاذ اللغة العربية و آدابها بجامعة طهران

و عضو مجمع اللغة العربية بدمشق

(از ص ٥٥ تا ٦٧)

موجز المقالة :

من أنعم النظر فى الادب الجاهلى نظرة ايجابية لرأى ان فى الادب الجاهلى جماعة من الشعراء و الخطباء الذين عبروا عن المعايير الاخلاقية الحسنة و حذروا الناس من الرذائل و المفسد كما نرى هذه الظاهرة فى جمع غفير من الشعراء و الخطباء الجاهليين بعبارة اخرى ان ما نظمه السموال بن عاديا و عروة بن الورد و لقيط بن يعمر خير دليل يهدى الناس الى اكتساب الخير و الفضيلة و يبعدهم عن التمسك بالرذائل فان الخطباء مثل قس بن ساعدة الايادى و اكثم بن صيفى و زهير بن جناب الكلبي بذلو اما كان لديهم من الجهد ليوفروا للجاهليين النصائح و البصائر لتنوير قلوبهم و حثهم على المحافظة على الشرف و العزة و الايثار كما نرى فى الحكم و الأمثال الجاهلية، القيم الخلقية الحسنة مصورة فان الباحثين الذين يعتقدون ان الادب الجاهلى مرآة للمفاسد و الملذات المادية ففى آرائهم مبالغة و غلو و ان كان الادب الجاهلى فى بعض جوانبه مزيجاً بالرذائل و الفساد.

الكلمات الرئيسية: الادب الجاهلى، القيم الخلقية، مكارم الاخلاق .

المقدمة:

ان الحديث عن القيم الخلقية فى الادب الجاهلى قضية طرق ابوابها كثير من البحاث و النقاد و لكنّ معظمهم و صلوا الى هذه النتيجة و هى أنّ الادب الجاهلى بشعره و نثره حافل بالمفاهيم التى لاتخالف المبادئ الخلقية الاسلامية فحسب بل تنافى كثيراً من المبادئ الخلقية التى اعترف بها شعوب غير مسلمة ايضاً و لا يخفى أنّ هذه العقيدة مما فيه مبالغة شديدة بعيدة عن الحيادية اذ انّ الباحث المنصف اذا تأمّن النظر فى الادب الجاهلى نظرة ايجابية رأى ان هناك جماعة من الشعراء و الخطباء الذين عبروا عن المعايير الخلقية و الانسانية التى لاتخالف الاسلام فحسب بل تلائم و افرأ من المقاييس الخلقية التى تؤيدها حقوق الانسان و تعترف بها الامم الاسلامية و غيرها، بعبارة اخرى أنّ معانى الشعر الجاهلى لاتتمثل فى معلقة امرء القيس و حدها الذى وصف المرأة وصفاً مكشوفاً خليع العذار و خلق منها ذريعة لالتذاذ الرجل الجاهلى البعيد عن تكريم المرأة و اعزازها غير أنّ فى شعر امرىء القيس هذا كثيراً من المعانى السامية التى تدل على أنّ امرىء القيس و اتباعه ذهبوا الى تكريم الانسان و ابعاده عن ورطة الهوان و الذلة. فمهما يكن فان بحث الادب الخلقى او الادب الملتزم عند بعض الفاحصين يتضح و ينكشف بالامثلة التى تجسدت عند الشعراء و الخطباء الجاهليين.

نصّ المقالة

قبل أن اتحدّث فيما تطور الادب الخلقى او الشبيه بالادب الملتزم فى العصر الجاهلى فمن الجدير أن اشير اشارة عابرة الى معنى لفظ الادب و استعماله فى العصر الجاهلى و بعد الاسلام إنّ الادب استعمل فى العصر الجاهلى بمعنى اقامة الصيافة و حفلة الطعام كما ذكر هذا المعنى طرفه بن العبد البكرى حيث قال:

نَحْنُ فِي الْمُسْتَأَةِ نَدْعُو الْجَفَلَى لَاتَرَى الْآدِبَ فِينَا يَنْتَقِرُ

(تاريخ الادب العربي، ج ١، ص ٧)

يدل البيت المذكور أننا نقيم الدعوة العامة يحضرها جم غفير من الناس فنحن انطبعا على الكرم و لانترون بيننا من يقيم الدعوة الخاصة يشاركها جمع قليل. خلاصة القول أننا لانرى للادب معنى آخر في العصر الجاهلي غير أن الادب استعمل بعد الاسلام معنى خلقيا تعليميا في الحديث النبوي و هو: أَدَبْنِي رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي. كما جاء في الحديث الآخر:

أَكْرِمُوا أَوْلَادَكُمْ وَأَحْسِنُوا أَدَبَهُمْ (المعجم المفهرس؛ مادة: ادب) ثم نرى ان معنى الادب تطور الى معان مختلفة حيث وجدت طائفة من المعلمين تسمى بالموذ بين اتخذهم الخلفاء مربين لاولادهم و لكن لانكادنصل الى القرنين الثاني و الثالث الهجري حتى تأخذ الكلمة معنى معرفة أشعار العرب و أخبارهم و اخذ المصنفون يؤلفون كتباً سموها كتب الادب ككتاب «الكامل في اللغة و الادب» كما استعملها بعض الادباء بمعنى الاسلوب الذي ينبغي اتباعه في فن من الفنون او عمل من الاعمال فقالوا: ادب الكاتب، ادب القاضي - و ادب المجالس و ادب الحديث (تاريخ الادب العربي، ج ١، ص ٨-٩) فبعد ان اتضح معنى الادب فلا بد أن أحدد معنى الادب الخلقى او الشبيه بالادب الملتزم الذي استعمل كثيراً في العصر الحاضر خاصة بعد انتصار الثورة الاسلامية فالادب الخلقى بمعناه الخاص هو أن يحافظ الشاعر او الكاتب في كلامهما على القيم الخلقية الانسانية السامية مما يثير الاحترام و التكریم عند قافلة البشرية بعبارة أخرى ان تؤيد الحضارة الانسانية الخالية من المجون و الفساد بغض النظر عن القومية و الجنسية ماورد من المفاهيم الانسانية العالية عند الشعراء و الكتاب و أضيف أن الادب الخلقى خاصة عند المسلمين لا بد أن يلتزم حكمة الرسالة و البعثة التي اكدها رسول الله (ص) في قوله حيث قال: بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْإِخْلَاقِ (المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي، مادة: بعث).

لَمَّا اندمج الادب الخلقى على ما عرفناه فى القيم الخلقية و مكارم الاخلاق فيوجه لنا سؤال و هو: هل نرى اثراً امن مكارم الاخلاق فيما وصل اليها من الادب الجاهلى بشعره و نثره. اذ أن بعض النقاد المتطرفين ذهبوا إلى أنّ الادب الجاهلى لا يتخيم إلا فى وصف النياق و إنضاءها و الوقوف على الاطلاع العافية و البكاء عليها و ذكر الحبايب العديدة ذكر امكشوفاً دون ان يرى فيه ضئيل من نور القيم الخلقية و التزام الاديب بها كما يعرض ابونواس هذه العادة الجاهلية حيث يقول:

عَاَجَ الشَّقَى عَلَى دَارِ يَسَائِلِهَا فَعَجَبْتُ أَشْأَلَ عَنْ خَمَارَةِ الْبَلَدِ

(ديوان ابى نواس، ص ٤٦)

اننى اعتقد أنّ هذا لقول لا يخلو من المبالغة و الغلو اذ أن الادب الجاهلى بشعره و نثره حافل بالمبادئ الخلقية و الانسانية التى لاتنافى الاسلام فحسب بل فى كثير من الاوقات فى الادب الجاهلى معان و مفاهيم يؤيدها الاسلام ولا يخالفها. على سبيل المثال انّ السموأل بن عاديا الشاعر اليهودى فى العصر الجاهلى الذى كان يعبد فيه جل العرب الاصنام و كانوا يذبحون القرابين على الانصاب كما قال النابغة فى معلقته:

فَلَا لَعْمُرُ الَّذِي مَسَّحَتْ كَعْبَتَهُ وَ مَا هُرَيْقٌ عَلَى الْأَنْصَابِ مِنْ جَسَدٍ

(ديوان النابغة الذبياني، ص ٥٦)

ممن عرف بوفائه و قيل أوفى من السموال (فراند المآل، ٢، ص ٣٣٢) هو الذى عبر فى ديوانه ما استطاع عن المعانى الخلقية و الانسانية التى تبعث الناس على التخلّق بالمبادئ الخلقية الحميدة فاليك بعض الابيات:

اذ المرء لم يدنس من اللوم عرصه فكُلُّ رِداءٍ يَرْتَدِيهِ جَمِيلٌ
تُعَيِّرُ أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا فَكُلْتُ لَهَا إِنْ الْكِرَامَ قَلِيلٌ
و ما قلّ من كائن بتاياه مثلنا شَبَابٌ تَسَامَى لِلْعُلَى وَ كُھُولٌ
وَ إِنَّا لَنَوْمٌ لَانرى الموت سبباً إِذَا مَارَأْتُهُ عَامِرٌ وَسَلُولٌ

مُقَرَّبُ حُبِّ الْمَوْتِ أَجَالْنَا لَنَا وَتَكْرَمَةُ أَجَالِهِمْ فَتَطْوُلُ
صَفْوَنَا وَلَمْ نَكْدِرْ وَأَخْلَصَ سِرْنَا إِنَاثُ أَطَابِثَ حَمَلْنَا وَفُحُولُ
عَلَوْنَا إِلَى خَيْرِ الطُّهُورِ وَحَطْنَا لِسُوقِ إِلَى خَيْرِ الْبُطُونِ نَزْوُلُ

(ديوان السموأل بن عاديا، ص ٩٥)

ان الابيات التي قدّمتها لكم من صاحب الحصن الابلق خير دليل على أنّ شاعرنا الجاهلي يدافع عن مكارم الاخلاق و عماتيسر من علياء الشرف و سموالسيم خاصة ان البيتين الذين يشير الشاعر فيهما الى طهارة اناث انجبت قومه و الى نزاهة ظهور اتت بابناء عشيرته نفس الكلام الذي قاله حسين بن علي (ع) اذا حاول أن يعتز بطهارة امه و علو درجة آبائه من الشرف و العزة عندما قال: ياأبي الله لنا ذلك و رسوله و المؤمنون و حجور طابت و طهّرت (اعلام الهدى، ج ٥، ص ١٩٥).

لا أتوخى تحليل الابيات المذكورة غير انني أقول إنّ السموأل بن عاديا خير أسوة لمن يلتزم بالاسس الاخلاقية التي لاتخالف الاسلام فحسب بل تنطبق انطباقا واضحا على المبادئ الخلقية في الاسلام.

ان للمرقش الاكبر الشاعر الجاهلي المتوفى سنة ٥٥٢ م قصيدة يقول فيها ما يضاهاى المبادئ التي قالها السموأل بن عاديا فتاملوا في الابيات التالية:

إِنَّا مُحَيِّوِكِ يَا سَلْمَى فَحَيِّينَا وَان سَقَيْتِ كِرَامَ النَّاسِ فَاسْتَيْنَا
إِنَّا لَنُرْخِصُ يَوْمَ الرِّوْعِ أَنْفُسَنَا وَلَوْ نُسَامُ بِهَا فِي الْأَمْنِ أَغْلِينَا
إِنِّي لَمِنْ مَعْشَرٍ أَفْنَى أَوْائِلِهِمْ قَيْلُ الْكُمَاةِ أَلَا أَيْنَ الْمُحَامُونَا
لَوْ كَانَ فِي الْأَلْفِ مِنَّا وَاحِدٌ فَدَعَا مَنْ فَارَسَ خَالَهْمُ إِيَاهُ يَعْنُونَا

(النصوص الادبية، ج ١، ص ٦٤-٦٥)

اعتزالشاعر بقومه فوصفهم بانهم يستبقون إلى المكارم و القيم الخلقية فان حمايتهم للضعفاء و المستضعفين جعلت عدد قبيلته قليلاً كما عبر عن هذا المعنى السموأل بن عاديا و أضفى المرقش الاكبر على ان قومه رجال ذوو قدرة و بطولة و

هي الصفات المثالية السائدة في المجتمع العربي و في هذا دلالة على ان فردية الشاعر الجاهلي تذوب الى حد كبير في قبيلته التي ينفخر من خلالها ان الحكم و النصائح التي جرت على لسان زهير بن ابي سلمى في معلقته مما ينم عن أنّ الشاعر يلزم القيم الخلقية و الانسانية التي يؤيدها كل قلب سليم فاليك بعض الابيات من معلقة زهير بن ابي سلمى

وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عَرِضِهِ يَفْرَهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ اللَّهَ يُشْتَمِ
وَمَنْ يُؤْفِ لَا يَذْمَمُ وَمَنْ يُهْدِ قَلْبَهُ إِلَى مَطْمَئِنِّ الْأَسْرِ لَا يَتَجَمِّمُ
وَمَنْ يَجْعَلِ الْمَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ يَكُنْ حَمْدُهُ ذِمًّا عَلَيْهِ وَيَسْتَدِمُ
لِسَانَ الْفَتَى نِصْفٌ وَنِصْفٌ فُؤَادُهُ فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالْدَّمَ
(جمهرة اشعار العرب، ص ١٥)

ان حب السلام من المضامين المحببة لدى كل مجتمع فانه قد ورد في الشعر الجاهلي كما ان الحارث بن جليزة البشكري عندما أزمع أن يبريء قومه عند عمرو بن هند مما ينسب اليهم من اثاره الحرب يقول بكلّ حسم في معلقته ان التغليبين هم الذين اضرمو نيران الحرب و اعدوا ما يلزم القتال من الادوات الحربية فاليك الابيات التالية:

وَ أَتَا نَا مِنْ الْخَوَادِثِ وَ الْأَنْبَاءِ خَطْبُ نُعْنَى بِهِ وَ نُسَاءِ
إِنَّ إِخْوَانَنَا الْأَرَاقِمَ يَغْلُونَ عَلَيْنَا فِي قِيْلِهِمْ إِحْفَاءِ
يَخْلُطُونَ الْبِرِّءَ مَنَابِذِي الذَّنْبِ وَلَا يَنْفَعُ الْخَلَى الْخَلَاءِ
أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ عِشَاءً فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ صَوْضَاءِ
مِنْ مَنَادٍ مِنْ مَجِيبٍ وَ مِنْ تَصْهَاءِ لِ خَيْلٍ خِلَالِ ذَاكَ رُغَاءِ
(شرح المعلقات السبع، ص ٥٧)

و من الجدير بالذكر أن اساس معلقة زهير بن سلمى على إحداث السلام بين قبيلتي عبس و ذبيان في العصر الجاهلي و نظم هذه القصيدة يبرهن على ان حب

السلام مما قد شاع في المجتمع الجاهلي كما أنه محبوب في كل زمن من الازمان. في الادب الجاهلي طبقة من الشعراء باسم الصعاليك إن هذه الطبقة من الشعراء و لو عرفت في العصر الجاهلي بعصاة من قطاع الطريق يغيرون على القبائل المختلفة في منتصف الليالي الحالكة و يقتلون الأطفال و النساء و الرجال منها و يفتنمون اموالها و يتسمون بين اصحابهم من الصعاليك كما أشار الى هذه المعاني الشنفرى حيث قال:

وَأَيْلَةَ نَحْسٍ يَصْطَلِي الْقَوْسَ رُبُّهَا وَ أَقْطَعَهُ اللَّائِي بِهَا يَتَنَبَّلُ
دَعَسْتُ عَلَى غَطِثٍ وَبَعْثٍ وَصُحْبَتِي سُعَاژَ وَارزِيژَ وَوَجْزَ وَ أَفْكَلُ
فَأَيْمْتُ نَسْوَانًا وَ أَئِثْمْتُ وَ لِدَةَ وَ عُدْتُ كَمَا أَبْدَاثُ وَ اللَّيْلُ أَلَيْلُ
(الروائع ٢، ص ٦٣)

و لكن عروة الصعاليك اى عروة بن الورد يختلف في سلوكه و تصرفاته اختلافا عظيماً عما عليه غيره من الصعاليك اذ أن عروة بن الورد لا يحاول كغيره من الصعاليك ان يشيع بطنه و يغازل النساء و يستمتع منهن بالملذات و الشهوات المادية و ينعزل في عقرداره و يتناول من الاطعمة و الاشربة ما يحب و يشتهي بل عنده غرض اسمى و ارفع من الاغراض العادية المبتذلة المتبعة لدى الاوغاد من الصعاليك بعبارة اخرى له معايير و قيم سامية في تعريف الصعلوك الحقيقي، منها: مساعدة الملهوف ورفد المظلوم و المحافظة على الشرف و كرامة النفس و عزتها فتفكروا في الابيات التالية حتى ينكشف لكم ما عبرت عنه:

لحي الله صعلوكاً إذا جنَّ لَيْلُهُ مُصَافِي الْمُشَاشِ أَلِفَا كُؤْلَ مَجْرَرِ
يَعْدُو الْغِنَى مِنْ نَفْسِهِ كُؤْلَ لَيْلَةٍ أَصَابَ قِرَاهَا مِنْ صَدِيقٍ مُبَسَّرِ
يَنَامُ عِشَاءً ثُمَّ يُصْبِحُ نَاعِسًا يَحْتُ الْحَصَى عَنْ جَنْبِهِ أَلْمُتَعَبِرِ
قَلِيلُ التَّمَايِسِ الزَادِ الْإِلْنَفْسِ إِذَا هُوَ أُمْسَى كَالعَرِيشِ الْمُجْرَرِ

يُعِينُ نِسَاءَ الْحَيِّ مَا يَسْتَعْنَهُ وَيُمْسِي طَلِيحاً كَالْبَعِيرِ الْمُحَسَّرِ
و لكنّ صعلوکاً صفيحةً ووجهه كضوء الشهاب القابيس المنتور

(ديوان عروة بن الورد، ص ٣٧)

يستنبط من الابيات المذكورة أن عروة بن الورد يعيب الصعلوك الذي يتراوح كل يوم، المجازر و مواقف اللحوم و الاطعمته باحثا عن قطعة من اللحم ليشبع بطنه و ينام الى ساعات متاخرة من النهار دون ان يشفق على اصحابه من الفقراء و المعدمين و لا يهتم ان يعيش عدد كبير من الناس في مجتمعه في عيش متقشف يوجعهم و يحدوهم على و فير من الاعمال المبتذلة التي لاتليق بكل انسان ذي شرف و عزة نفس بل ان الصعلوك الشريف لدى الشاعر هو الذي يتنور ووجهه من النبل و المجد و إغائة الملهوف و اشباع الفقراء و ايثارهم على نفسه في جميع المتطلبات و الحاجات الانسانية و ان عروة بن الورد هذا يعتزبان يقسم جسمه في جسوم كثيرة و يعانى ما يعانى من شظف العيش و قسوته حتى يحيى غيره حياة مرتاحة خالية من العار و الشنار فتأملوا في هذه الابيات التي تكشف بكل وضوح عن هذه الحقيقة.

إني امرأة عافى إنائي شُرْكَةً وانت أمرؤ عافى إنائك واجد
أتهزأ مني أن سميت وأن ترى بوجهي شحوب الحق و الحق جاهد
أقسّم جسمي في جسوم كثيرة و أحسو قراح الماء و الماء بارد

(ديوان عروة بن الورد، ص ٢٩)

من الاخلاق الفاسدة التي شاعت في العصر الجاهلي هي ان يغازل كل رجل الحسان و الغواني دون ان يكتفى بعشيقه واحدة كما نرى ان امرأ القيس يذكر اسماء الحبيبات المختلفة في شعره كفاطمة و أم الرباب و عنيزة و غير هن من النساء و علاوة على هذا فمن عادة الشاعر الجاهلي ان يدخل طارفا بكل قوة و استقبال اخطار خدور الحبيبة كأن الشاعر الجاهلي آلى على نفسه ان يعتز في كل امر حتى في امر الحب و الهوى. فانظروا فيما يقوله امرؤ القيس

وَإِنَّ شِفَائِي عَبْرَةٌ مُهْرَاقَةٌ
كَدَأْبِكِ مِنْ أُمِّ الْحَوَيْرِثِ قَبْلَهَا

فَهَلْ عِنْدَ رَسْمِ دَارِسٍ مِنْ مُعْوَلٍ
وَجَارَتِهَا أُمُّ الرَّيَابِ بِمَاسَلٍ

(شرح المعلقة السبع، ص ١٥)

أَفَاطِمَ مَهْلًا بَعْضَ هَذَا التَّدَلُّلِ
وَيَوْمَ دَخَلْتُ الْخِدْرَ خِدْرَ عُنَيْزَةَ
تَجَاوَزْتُ أَحْرَاسًا إِلَيْهَا وَمَعَشْرًا

وَإِنْ كُنْتُ قَدْ أَزْمَعْتُ صَرْمِي فَأَجْمَلِي
فَقَالَتْ لَكَ الْوَيْلَاتُ إِنَّكَ مُرْجَلِي
عَلَى حِرَاصًا لَوْ يُسِرُّونَ مَقْتَلِي

(شرح المعلقة السبع، ص ١٧)

في هذا المجتمع الذي قد شاع فيه الفساد الخلقى ودفن كثير من المعايير الخلقية
فنرى أن عروة بن الرود يتعفف في امر المرأة وحبها ولا يتزهد فيها فحسب بل
يتغافل عن النظر اليها حينما تنكشف عورة جارتها فلا ينظر اليها حتى تستتر وراء
الخيمة فتأملوا في الابيات التالية

إذا المرء لم يبعث سواماً ولم يُرْحَ
فَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ لِفَتَى مِنْ حَيَاتِهِ
وَإِنْ جَارَتِي أَلَوْتُ رِيحَ بَيْتِهَا

عَلَيْهِ وَلَمْ تَعْطِفْ عَلَيْهِ أَقَارِبُهُ
فَقِيراً وَمِنْ مَوْلَى تَدِبُّ عَقَارِبُهُ
تَغَافَلْتُ عَنْهُ حَتَّى يَسْتُرَ الْبَيْتَ جَانِبُهُ

(ديوان عروة بن الورد، ص ١٩)

و يقول عروة بن الورد في مكانٍ آخر:

فِرَاشِي فِرَاشُ الصَّيْفِ وَالْبَيْتُ بَيْتُهُ
وَلَمْ يُلْهِنِي عَنْهُ غَزَالٌ مُفَنِّعٌ

(ديوان عروة بن الورد، ص ٤٩)

قلت أنفاً إن أكثر الشعراء في العصر الجاهلي احبوا و عشقوا الحبايب العديدة
غير ان المرقش الاكبر ايضاً في تعداد الجاهليين الذين كلفوا بعشيقه واحده إذ أنه
شغف بحب اسماء ابنة عمه ولم ينل وصالها و مات في حبها كما قال في الابيات
التالية

قُلْ لِاسْمَاءَ أَنْجَزَى الْمِيعَادَا
وَ أَنْظِرِي ان تَزُودِي مِنْكِ زَادَا

وَإِذَا مَرَّ أَتَيْتِ رَكْبًا مُخَيَّبِي
فَهَمَّ صَحْبِي عَلَى أَزْحَلِ الْمَسِيْبِي
وَإِذَا مَا سَمِعْتِ مِنْ نَحْوِ أَرْضِ
فَاعْلَمِي غَيْرَ عِلْمِ شَكِّي بِأَنِّي
سَنَ يَقُودُنْ مُقْرَبَاتِ جِيَادَا
يَسْرُجُونَ أَيُّنَقَا أَفْرَادَا
بِمُجِبِّ قَدَمَاتِ أَوْ قَيْلِ كَادَا
ذَاكَ وَ أَبْكِي لِمُضْفَدِ أَنْ يُفَادِي

(النصوص الادبية، ج ١، ص ٦٩)

ان تعيين الصفات و القيم و المعايير لكل شيخ او امير او قائد من الموضوعات التي اهتم بها كثير من الشعوب منذ ظهور مجتمع من المجتمعات فان لقيط بن يعمر الشاعر الجاهلي يشترط على من يتولى امور القبيلة شروطاً انسانية سامية تدل على ان الجاهليين كانوا يكثرثون بمكارم الاخلاق فيمن يترأس امراً من الامور فهو يقول في قصيدته العينية المشهورة: يجب على الزعيم ان يكون رحيب الصدر محنكاً في الحرب و لا يكون من المترفين متعودا على العيش الرغيد بحيث اذا اصابه مكروه يستسلم للعدو بكل سهولة ويشترط على القائد ان يكون قليل النوم مسهد اليرتاح من يعيشون تحت حمايته و يجب عليه ان لا يدخر المال و لا يجعل الزعامة او القيادة كثرات لولده بعده و هذه المعايير مما يؤكد التزامه في عصرنا الحاضر ايضا فانظروا فيما قاله لقيط بن يعمر:

وَ قَلَدُوا أَمْرَكُمْ لِيْلِهِ دَرُّكُمْ
لَا مُتْرَفَاً إِنْ رَحَاءُ الْعَيْشِ سَاعِدُهُ
مُسَهَّدَ النَّوْمِ تَعْنِيهِ أُمُورُكُمْ
وَلَيْسَ يَشْفُلُهُ مَالٌ يُنَمَّرُهُ
رَحْبَ الذِّرَاعِ بِأَمْرِ الْحَرْبِ مُضْطَلِعَا
وَلَا إِذَا عَضَّ مَكْرُوهٌ بِهِ خَشَعَا
يَرُومُ مِنْهَا إِلَى الْأَعْدَاءِ مُطَّلِعَا
عَنْكُمْ وَلَا وُلْدٌ يَبْغِي لَهَا لِرَفْعَا
يَكُونُ مُتَّبِعَا طَوْرًا وَ مُتَّبَعَا
مَا أَنْفَكَ يَحْلِبُ هَذَا أَلْدَهْرَ أَشْطَرُهُ

(المنتخب من عصور الادب، ج ١، ص ٣٥)

اعتقد أن ما أتيت به من القضا يا التي تؤيد تواجد القيم الخلقية في الشعر الجاهلي تكفيننا فحزى بي ان اوجز القول في وجود القيم الخلقية و مكارم الاخلاق

في العصر الجاهلي فاشير الى ان الخطابة في العصر الجاهلي لها دور عظيم تربوي في نمو الاخلاق الحسنة كما نرى هذا التأثير للخطبة التي القاها قس بن ساعدة الايادي في سوق عكاظ امام النبي (ص) فروى ان رسول الله (ص) أعجب بها و أثنى على صاحبها لان قس بن ساعدة الايادي في خطبته هذه يثير الناس على التفكير في مصير الحياة و آيات الخالق المبدع و يحدوهم بما يعظهم على الاعتبار بعاقبة الذين اضطهدوا و أشادوا بالنيات الشامخة و لم يبق اثر مما كانوا يشناقون اليه فتأملوا في الجمل الآتية من خطبة قس بن ساعدة الايادي:

يا مَعَسَرَ إِيَادِ، اِبنِ الْآبَاءِ وَالْأَجْدَادِ و ابنِ الْفِرَاعِيَّةِ الشَّدَادُ أَلَمْ يَكُونُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ أَمْوَالاً وَ أَطْوَلَ مِنْكُمْ أَجَالاًذْ طَحَنَتْهُمُ الدَّهْرُ بِكُلِّكَلِيهِ وَ مَرَّقَتْهُمُ بَسَطَاوِلِهِ (النصوص الادبية، ج ١، ص ٩٩) هناك في العصر الجاهلي اكنم بن صيفي الذي ظهر حكيماً واعظاً مجرباً ذابرهان ساطع و مقدره خطابيه قويه. في خطبته التي القاها امام كسرى انوشروان مجموعه من الفضائل و الرذائل الاجتماعيه و تأثيرها في حياه الناس و فيها مجموعه من القيم السلوكيه التي تتعلق بالحاكم و المحكومين، فاصلاح الرعيه اكثر نفعاً من اصلاح الراعي فنيه اصلاح المجتمع كله في حين أن اصلاح الحاكم يقتصر على اصلاح فرد واحد و الحاكم الذي تحيط به بطانه سوء، تشل حركته و يكون كمن يغص بالماء فاليك بعضاً من خطبة اكنم بن صيفي.

ان افضل الاشياء أعاليها، و افضل الملوك أعمنها نفعاً و أفضل الخطباء أصدقها. الصّدقُ منجاةٌ و الكذبُ مهوأة. آفةُ الرأيِ الهوى و العجزُ مفتاحُ الفقرِ، اصلاحُ فسادِ الرّعيّةِ خيرٌ من إصلاحِ فسادِ الراعي، من فسدت بطانته كان كالفاسد بالماء (آداب اللغة العربيّة و تاريخها، ص ٣١)

ان الوصية التي اوصى بها زهير بن جناب الكلبي اولاده دليل آخر ان القيم الخلقية تسود في اكثر الاوقات في العصر الجاهلي و الآباء يرغبون في ان يعيش ابناؤهم عيشة صالحة حتى من بعدهم فبذلك نرى زهير بن جناب الكلبي في وصيته

لابنائهم رجلا علاه الشيب محنكا اكسبه العمر الوقور، الحكمة البالغة و التجربة الصادقة فوصيته تلخص في الصبر على الشدائد و عدم الاستسلام لها و في ترك الغرور عند الانتصار و الحذر ايام الرخاء فيوصي زهير بن جناب الكلبي ابنائه بما يلي:

إِيَّاكُمْ وَالْخَوَزَعِنْدَ الْمَصَائِبِ وَ التَّوَاكُلَ عِنْدَ النُّوَابِ فَإِنَّ ذَلِكَ دَاعِيَةٌ لِلْغَمِّ وَ شِمَاتَةٌ لِلْعَدْوِ وَ سَوْءُ ظَنِّ بِالرَّبِّ وَ إِيَّاكُمْ أَنْ تَكُونُوا مُغْتَرِبِينَ بِالْأَحْدَاثِ وَ لَهَا آمَنِينَ وَ مِنْهَا سَاخِرِينَ (النصوص الادبية، ج ١، ص ١٥٤)

اذا حاولت أن افصل القول في تواجد المثل الاخلاقية في النثر للعصر الجاهلي فلا بد لي أن اكتب كتابا ضخما يتناول هذا البحث بجوانبه العديدة فاقنع بهذا المقدار من البيان و اختتم مقالتي بالحكم و الامثال التي مليئة بالقيم الخلقية الكاشفة عن منهج الفكر و العقيدة في العصر الجاهلي انانرى ان الحكمة جملة متينة تبعث على الخير و تحذر من الشر تصدر عن النظرة الصادقة للحياة، و هي التجربة القويمية من اصحاب النظرة الثاقبة في الامور كما ان المثل هو عبارة موجرة ترتبط غالبا بحادثة ثم يكثر استعمالها و تداولها بين الناس فاذا تمسكنا بالمعنيين من الحكمة و المثل فنرى أن الحكم و الامثال الجاهلية تعلم العقل و المبادئ الخلقية التي اعترف بها جميع الناس حتى في العصور الآتية و ان مغزاها يبقى خالدا مادام الدهر باقيا. فاليك بعض الحكم و الامثال:

أَفَقُّ الرَّأْيِ الْهَوَى، مَصَارِعُ الرِّجَالِ تَحْتَ بُرُوقِ الطَّمَعِ. كَلِمُ اللِّسَانِ أَنْكَبُ مِنْ كَلِمِ السِّنَانِ - رضا الناس غاية لا تُدرَكُ أوَّلُ الحَزْمِ المشورة: (النصوص الادبية، ج ١، ص ١٥٧)

النتيجة:

انّ ما تقدم من الامثلة الشعرية و النثرية أثبت ان الادب الجاهلي حافل بكثير من القيم الخلقية و مكارم الاخلاق فان النقاد و الباحثين الذين ذهبوا إلى أن الادب

الجاهلي كله مليء بالمفاسد و الرذائل و هو يتلخص في المذات و الشهوات فقد اخطأوا و بالغوا في آرائهم المتطرفة فانهم ارادوا ان يصوروا من العصر الجاهلي صوراً بشعة تنافى في جميع جوانبها، المبادئ الاخلاقية في حين نرى ان الجاهليين اهتموا بالاخلاق الحسنة و مكارم الاخلاق اذ ان الانسان حسب فطرته السليمة يميل الى الخير اكثر من رغبته في الشرفان الاشعار و الكلمات والخطب التي وصلتنا من الادب الجاهلي تؤيد ما ذهبت اليه و ان كان هذا الادب في بعض اصعدته مزيجاً بالمفاسد الاخلاقية و الرذائل عند من تورطوا في المهالك و المهاوى من الفساد.

المصادر البحث:

- ١- اعلام الهدى، الامام الحسين، المجمع العالمي لاهل البيت، قم المقدسة، ١٤٢٢ هـ.ق، ج ٥.
- ٢- تاريخ الادب العربي، الدكتور شوقي ضيف، ج ١، العصر الجاهلي، دارالمعارف، مصر.
- ٣- جمهرة أشعار العرب، ابوزيد محمد بن ابي الخطاب القرشي، دارصادر، بيروت، ١٩٩٨ م.
- ٤- دروس في آداب اللغة العربية و تاريخها، محمد محمدي، طهران، ١٣٤٩ هـ.ش.
- ٥- ديوان ابي نواس، احمد عبدالمجيد الغزالي، القاهرة، ١٩٥٣ م.
- ٦- ديوان السموال بن عاديا، قدمه عيسى سابا، دار صادر، بيروت .
- ٧- ديوان عروة بن الورد، دارصادر، بيروت.
- ٨- ديوان النابغة الذبياني، شرح و تعليق، الدكتور حنا نصرالحتي، بيروت، ١٩٩١ م.
- ٩- الروائع، الشعر الجاهلي، فؤاد إفرايم البستاني، دارالمشرق، بيروت، ١٩٨٦ م.
- ١٠- شرح المعلقات السبع، دار صادر، بيروت.
- ١١- فرائد اللال في مجمع الامثال، الشيخ ابراهيم بن السيد علي الاحدب الطرابلسي، ج ٢.
- ١٢- المعجم المفهرس لالفاظ الحديث النبوي، الجزء الاول، مكتبة بريل، مدينة ليدن، سنة ١٩٣٦ م.
- ١٣- المنتخب من عصور الادب، تأليف الدكتور ذوالنون المصري و الدكتور سعد اسماعيل شلبي، القاهرة.
- ١٤- النصوص الادبية. الفها عدد من المؤلفين، على اشراف كمال ناجي مدير المعارف القطري، قطر.